البوابة
اسم الكاتب(ة)
:ايناس عثمان
تاريخ الاصدار :25 جوان 2025

البوابة

للكاتبة : ايناس عثمان

تصنيفها : خيال-مغامرات-فانتازيا

مقدمة:

أحيانًا، يكون الطريق إلى الحقيقة مغطّى بالظلال.”

“في كل قلب، سر ينتظر من يكتشفه.”

“ليس كل ما نراه هو الحقيقة.”

“الرحلة لا تبدأ حين نصل، بل حين نقرر أن ننطلق.”

“بين الصمت والكلمات، تروى أعظم الحكايات.”

الفصل الاول

العودة

منذ أن مات والدي، تغيّر كل شيء في حياتي...
لم يكن الحزن فقط ما حلّ علينا، بل شيء أعمق، شيء لا يُرى، لكن يُشعر به في كل زاوية من زوايا البيت.
لم تعد ضحكات أمي كما كانت، حتى إن ابتسمت، كانت ابتسامتها تبدو كما لو أنها قناع واهن يغطي ما هو أعمق من التعب.
أصبح صمتنا أكثر من كلامنا، وأصبح المساء أكثر ثقلاً من النهار.

أتذكّره...
ليس بصورته فقط، بل بصوته، بخطواته وهو يدخل الغرفة، بطريقة ضحكه حين كنت أرتكب أخطاءً بسيطة في النطق، وحتى بطريقته في مسح رأسي قبل أن أنام.
كان كل شيء فيه يعني لي الأمان، وحين رحل، غادر معه جزء من عالمي لم أستطع استعادته.

في البداية، لم أفهم تمامًا معنى الموت.
كنت أنتظر عودته لأسابيع، ثم شهور، وأحيانًا كنت أحلم بأنه يعود، يفتح الباب ويقول إن كل شيء كان مجرد خطأ.
لكن أمي كانت تكرر دائمًا، بصوت هادئ لا يخلو من رجفة، أن والدي توفي أثناء رحلته، وأنه لن يعود.
كنت أريد أن أصدق، لا لأنني اقتنعت، بل لأن ذلك كان أسهل من الاستمرار في الانتظار.

مرت سنتان...
طويلتان.
هادئتان ظاهريًا، لكن بداخلي كانت تضجّ بالأسئلة، بالحنين، بالخوف.
كنت كلما نظرت إلى صورة والدي المعلّقة في الصالة، شعرت بشيء غريب... وكأن نظراته تتبعني... وكأن هناك شيئًا ما لم يُقال بعد.

ثم جاء ذاك اليوم.

استيقظت على صوت حركة غير معتادة في البيت.

وجدت أمي في المطبخ، تضع أشياء في حقيبة صغيرة، نظراتها مركزة ووجهها شاحب على غير العادة.

سألتها إن كانت ذاهبة في رحلة، لكنّها أجابت بهدوء:

— "سنعود."

نظرت إليها باستغراب.

ـــ "نعود؟ إلى أين؟"

رفعت نظرها إليّ وقالت:

ـــ "إلى قريتي القديمة. حان الوقت."

لم تشرح. لم تفتح مجالاً للأسئلة.
فقط طلبت مني أن أجهز حقيبتي.

كانت المرة الأولى التي أراها بذلك الحزم.
لم أجادلها، رغم أنني لم أفهم السبب.
فقط استسلمتُ، وقلبي مليء بالتساؤلات: لماذا الآن؟ لماذا بهذه السرعة؟ ولماذا شعرت أن هذا القرار يخفي شيئًا لا تريد أن تقوله؟

ودّعت صديقتي عبر الهاتف برسالة مقتضبة، ألقيت نظرة أخيرة على غرفتي، على شباكي، على مدينتي التي كنت أظن أنني لن أتركها أبدًا.
ثم انطلقنا.

كانت الرحلة طويلة، صامتة في أغلبها.

المناظر تتغيّر شيئًا فشيئًا، من البنايات العالية، إلى الحقول الممتدة، إلى الغابات الكثيفة، حتى بدت لي الطريق كأنها تقودنا إلى زمن آخر.
كنت أراقب أمي من المقعد المجاور. كانت شاردة، تنظر من النافذة بصمت، وعيناها معلّقتان بشيء بعيد لا أراه.
سألتها مرة:

ـــ "لماذا الآن؟"

لم تجب.

أغمضت عينيها وقالت: "ستفهمين لاحقًا."

وصلنا قبل الغروب بقليل.
القرية كانت هادئة، مبللة بندى الخريف، وتغمرها رائحة الأرض الباردة.
البيوت صغيرة، متفرقة، والهواء أنظف بكثير من المدينة، لكنه حمل في طياته إحساسًا غريبًا... كأن شيئًا ما في المكان متوقف عن الزمن.

البيت الذي سنقيم فيه كان من الحجارة القديمة، نوافذه من الخشب العتيق، وحديقته متوحشة بعض الشيء، كما لو أنها تُركت لسنوات بلا رعاية.
عند دخولي، شعرت برعشة خفيفة.
ليس بسبب البرد، بل بسبب شيء آخر... إحساس لا أستطيع وصفه تمامًا.

كنت أراقب أمي تتحرك داخل البيت وكأنها تعرف كل تفصيلة فيه، وكأن الذكريات تنهمر عليها بصمت.
في تلك اللحظة، بدا لي أن هذا المكان لا يحمل لها فقط حنين الماضي... بل يحمل شيئًا أكثر تعقيدًا.

في الليل، اقترحت أمي أن نخرج قليلاً للمشي.
قالت إن القمر بدراً، وإن الطريق بين الأشجار يكون جميلاً في مثل هذه الليالي.

كانت نبرتها دافئة، لكنها أيضاً ملوّنة بنوع من التردد... كأنها تجرّ نفسها لتلك الخطوة.

مشينا بين الأشجار، وضوء القمر ينسكب على الأرض بلون فضيّ، فتبدو الأشجار أطول، وظلالها أكثر عمقًا.
كانت الريح خفيفة، تحمل معها أصواتًا غريبة لا أعرف إن كانت طبيعية أو فقط من نسج خيالي.

أمي تمشي أمامي، صامتة، وكأنها تتبع شيئًا تعرفه.
ثم، فجأة، توقفت.

— "هنا..." قالت.

نظرتُ حولي، لم أر شيئًا مميزًا.
لكنها تقدّمت، ثم استدارت إليّ وقالت:

— "إذا حدث لي شيء... عليكِ أن تذهبي إلى امرأة اسمها السيدة نجيبة. تسكن قرب الحقول، في بيت أبيض له سقف أزرق. ثقي بها، ."

كادت الكلمات تختفي بين الريح، لكني سمعتها... وكل خلية في جسدي تجمدت.
ما الذي تتحدث عنه؟ لماذا تقول "إذا حدث لي شيء"؟

لم أجد وقتًا لأطرح سؤالاً.
فجأة، بدا الهواء من حولنا وكأنه يشتعل... نور خافت بدأ يخرج من بين الأشجار، مثل لهب غير مرئي، لكن نابض، يدعونا إليه.
اقتربت أمي، وأنا خلفها، قلبي ينبض بقوة، وعيناي تتسعان رعبًا ودهشة.

ثم حدث شيء... لا أعلم كيف أصفه.
شعرت بقوة غريبة تسحبنا، وكأن الأرض لم تعد صلبة، وكأن الضوء ابتلعنا.

صرختُ باسم أمي، أمسكت بمعطفها، لكنها نظرت إليّ و قالت
— "اذهبي. ثقي بها. ثقي بنفسك."

ثم دفعتني بعيدًا، واختفت.

استيقظت وحدي...
الظلام من حولي، البرد يخترق عظامي، وصوت الريح كأنّه يهمس بأشياء لا أفقهها.
صرختُ باسمها، لكن لا رد.

عدتُ إلى البيت، لا أدري كيف، والدموع تملأ وجهي.

على الطاولة، وجدت حقيبة صغيرة.
فتحتها، فوجدت بداخلها رسالة مكتوبة بخط يد أمي:

"صغيرتي،
أعلم أن ما حدث أربكك واخافك.
كنت أحاول حمايتك، لكن يبدو أن الوقت قد حان لتعرفي الحقيقة.
هناك طريق، وهناك امرأة تعرفه.
ثقي بالسيدة نجيبة، واتّبعي قلبك.
سأكون بانتظارك..."

جلستُ على الأرض، والرسالة بين يدي، وقلبي يرتجف.
كنت خائفة، ضائعة، لا أدري إن كنت أحلم أم أعيش واقعًا جديدًا بالكامل.
لكن شيئًا في داخلي تغيّر.

لم لم أعد تلك الطفلة التي تخاف الظلال،
في تلك اللحظة، عرفت أن شيئًا كبيرًا بدأ...
وأنه لا رجوع بعد الآن.

الفصل الثاني

السيدة نجيبة

استيقظتُ في الصباح الباكر، بعد ليلة مضطربة بالكاد نمت فيها.
كلما أغمضت عينيّ، كنت أراها... أمي، وهي تختفي وسط النور، يداها تمتدان نحوي، ثم تختفيان في العدم.

في الغرفة القديمة التي نمت فيها، كانت الجدران تعكس برد الخريف، وكان الصمت يملأ المكان كأنه ينتظر شيئًا.
تذكرت الرسالة... والسيدة نجيبة.
لم أكن أعرف من تكون، ولا ما تنتظرني لأجله، لكن لم يكن أمامي خيار آخر.

لبست معطفي، ووضعت الرسالة في جيبي، ثم خرجت.
كان الفجر لا يزال خافتًا، والشمس لم ترتفع بعد، لكن القرية بدت وكأنها تستيقظ بهدوء.
كانت الأرض رطبة، والندى يلمع على الأعشاب.
كان الطريق إلى الحقول طويلاً، لكنه لم يكن مخيفًا كما توقعت.
ربما لأن داخلي كان مشغولاً بما هو أخطر.

تقدّمت بخطى حذرة، أراقب كل شيء حولي: الأشجار، الصخور، حتى الطيور التي كانت تطير فوقي...
كل شيء بدا وكأنه يراقبني أيضًا.

ثم رأيت البيت.

كان صغيرًا، أبيض اللون كما وصفته أمي، وسقفه الأزرق بدا لامعًا تحت الضوء الخافت للشمس.
كان محاطًا بحديقة غير مرتبة، فيها نباتات برية، وأزهار لم أر مثلها من قبل.

ترددت للحظة أمام الباب الخشبي.
ثم رفعت يدي وطرقت.

سمعت خطوات بطيئة من الداخل، تقترب بثقل، حتى فُتح الباب.
امرأة مسنّة، بعيون عميقة تلمع بلون غريب بين الرمادي والأخضر، كانت تنظر إليّ كأنها كانت تنتظرني منذ زمن طويل.

— "أنتِ... ابنتها."

لم أسألها كيف عرفت.
شعرت أن سؤالاً كهذا لا معنى له أمام تلك النظرة.

أشارت لي بالدخول، فدخلتُ، والخوف لا يزال يسكن قلبي، لكنه مختلط بفضول لا يمكن كبحه.

كان البيت بسيطًا من الداخل، تملؤه رائحة الأعشاب المجففة، والأخشاب القديمة.
جلست على كرسي من القش، وقدّمت لي السيدة نجيبة كوبًا من مشروب دافئ.
رائحته تشبه الزعتر ممزوجًا باليانسون، غريب لكن مريح.

جلست أمامي، صامتة للحظات، تراقبني كأنها تقرأ أفكاري دون أن أنطق.

ـــ "كنت أعلم أن هذا اليوم سيأتي. أمك كانت شجاعة، لكنها كانت تعرف أن النهاية ليست بيدها."

ـــ "أين هي؟" سألتها، بصوت خافت.

نظرت إليّ، ثم تنهدت.

ـــ "ليست هنا. لكنها لم تضِع."

رفعت رأسي بسرعة، الكلمات بعثت فيّ رجفة.

ـــ "كيف ذلك؟"

لم تجبني مباشرة.
قامت، وأحضرت صندوقًا خشبيًا صغيرًا، فتحته أمامي.
كان فيه قلادة فضية، تتدلى منها قطعة حجر أزرق، ينبض بضوء خافت يشبه تنفسًا هادئًا.

ـــ "هذه... ستدلّك. ستحميك. وستفتح لك الباب."

ـــ "أي باب؟"

ـــ "الباب الذي لا يراه الناس... إلا إن كانوا مستعدّين."

بدأت الكلمات تُربكني.
لكنها تابعت، ببطء، وكأنها تحكي حكاية قديمة من زمن بعيد.

قالت إن هناك عالماً لا يشبه عالمنا، لا يُفتح إلا في أوقات محددة، عندما يكتمل القمر.
قالت إن أمي عرفت كيف تدخل، لكنها لم تعد .
و لكنها لم تذكرالسبب الحقيقي لذهاب أمي.

وفي كل مرة أسأل، كانت تجيبني بابتسامة حزينة، أو صمت طويل.
كأنها تقول: "ليس الآن."

أخذتُ القلادة.
كانت دافئة، وكأنها حيّة.
وعندما أمسكتها، خفق قلبي بقوة، وشعرت أن شيئًا داخلي تغيّر... وكأن هناك بابًا صغيرًا فتح في داخلي، لا أعرف ما خلفه بعد.

قالت لي:

ـــ "الليلة، مع اكتمال القمر، سيعود الضوء."

وقفتُ، وأنا أرتجف.

ـــ "وماذا بعد؟"

ابتسمت السيدة نجيبة، تلك الابتسامة التي لم أكن أفهمها بعد، وقالت:

ـــ "حين تُفتح البوابة، لا تترددي. الطريق ليس سهلاً... لكنك لن تكوني وحدك."

لم أفهم ما تقصده، لكنني شعرت أن ما ينتظرني لن يكون عادياً.

خرجتُ من بيتها، والقلادة تتدلّى من رقبتي، والهواء حولي بدا مختلفًا.
في طريقي إلى البيت، كان الغروب قد بدأ، والسماء تلوّنت بلون بين البرتقالي والرمادي.
كل شيء كان هادئًا... لكنه لم يكن عاديًا.

كنت أعرف، دون أن أعرف كيف، أن الليلة... ستكون مختلفة.

الفصل الثالث

الانتظار

الليل اقترب ببطء، كما لو أنه لا يريد أن يأتي، لكنه لم يكن قادرًا على التراجع.
كلما اقترب القمر من اكتماله، كانت أنفاسي تضيق أكثر، وكأن الهواء نفسه صار أثقل.
عدت من بيت السيدة نجيبة بصمت، وقلبي ينبض بإيقاع لم أعرفه من قبل.

لم أعد تلك الطفلة التي تسأل "لماذا؟" لكل شيء.
كنت فقط أبحث عن معنى لما أعيشه... أو ربما عن إشارة تُخبرني إن كنت على الطريق الصحيح.

دخلتُ البيت الذي بتنا نسكنه مؤقتًا، وجدته كما تركته: صامتًا، قديمًا، تُظلم زواياه مبكرًا حتى قبل أن يحل المساء.
رميتُ معطفي على الكرسي الخشبي قرب الباب، وجلست على الأرض قرب النافذة.
السماء بدأت تظلم، والقلادة التي وضعتها في عنقي منذ الصباح، بدأت ترسل ذبذبات خفيفة... كأنها تنبض مع اقتراب موعدها.

تسللت إلى المطبخ. لم أشعر بالجوع، لكنني أردت أن أشغل يدي بشيء، أي شيء.
فتحت الثلاجة القديمة، أخرجت تفاحة، قطعتها بلا تركيز، ثم تركتها دون أن أتذوقها
كان داخلي يتصارع بين الفضول والخوف، بين الشوق والشك.

ماذا لو لم أعد؟
ماذا لو كانت هذه الليلة بداية النهاية؟
أو... ماذا لو كانت البداية فقط؟

قضيت الساعات التالية أمشي داخل الغرفة، أفتح الدرج ثم أغلقه، أنظر في المرآة وأتساءل من هذه الفتاة التي تحدّق فيّ؟
هل أنا هي؟
أم أنني تحوّلت إلى شخص لا أعرفه؟

في لحظة ما، سمعت صوت شيء خفيف يصطدم بالزجاج الخارجي.
تقدّمت ببطء، فتحت النافذة، كان النسيم باردًا... ومعه، رأيت القمر.

كاملاً.

صامتًا.

ضخمًا كأن السماء كلّها تنحني لتظهره.

شعرت بالقشعريرة تسري في جسدي.
ثم، القلادة... توهّجت.

أغمضت عيني.
لم أكن مستعدة.
لكنني لم أكن أملك خيارًا.

تركتُ الباب مفتوحًا خلفي، وركضت.
لم أكن متأكدة من الطريق، لكن قدماي قادتاني دون تفكير.
كل خطوة كانت تثبّت شيئًا في داخلي.
كل نفس كنت آخذه، يجعلني أدرك أكثر أن لا رجعة الآن.

أشجار الغابة بدت أطول، أغمق، أكثر حياة.
صوت الليل كان أوضح، كأن الأشياء كلها تنتظر ما سيحدث.

ووصلت.

إلى المكان نفسه الذي كنا فيه ليلة اختفاء أمي.
تحت الأشجار، وفي قلب الأرض، في تلك البقعة حيث التقت الظلال بالضوء.

وقفت في المنتصف.
القلادة تلمع، ويداي ترتجفان.

ثم... بدأ كل شيء.

خرج نور من الأرض.
ليس كضوء مصباح، بل كضوء حيّ.
كأنّه يتنفس، يتوسع، يراقبني.

شعرت بجسدي يتجمد، لكنني لم أتراجع.
رفعت القلادة، فازداد توهجها، وانفتح الضوء أكثر.

دوامة من النور بدأت تدور من حولي، ثم... لم أعد أشعر بالأرض.
كأنني طرت، أو انزلقت، أو تلاشيّت...

واختفى كل شيء.

استيقظتُ في عالم آخر.

أرض ناعمة، بلون أزرق فضيّ، لا تشبه التراب، ولا العشب...
سماء ليل بنفسجية، ونجوم تتحرّك ببطء، لا تلمع فقط... بل تتنفس.

جلست ببطء، شعرت بجسدي خفيفًا، وعيناي بالكاد تستوعبان الألوان حولي.

ثم سمعت صوتاً صغيراً:

ـــ "مواء؟"

رفعت رأسي، فإذا بقط رماديّ اللون يقف أمامي، بعينين واسعتين تلمعان بذكاء غريب.
وقبل أن أستوعب ما أراه، سمعت نباحًا خافتًا، ثم ظهر كلب بلون بني داكن، يبدو ودودًا لكنه قوي البنية.
ومن فوقي... حلّق ببغاء ملوّن، ريشه يميل إلى الذهبي، عيونه تراقبني باهتمام.

وقفوا حولي.

لم يتكلموا أولاً.

ثم قال الببغاء، بصوت واضح:

ـــ "أخيرًا... وصلتِ."

الفصل الرابع

العبور

لم أستطع الردّ على الببغاء.
كنت ما أزال أحاول تصديق أنني في مكان آخر، عالم لا يشبه أي شيء رأيته من قبل، ولا حتى في أحلامي.

وقفت ببطء، وقلبي ما يزال يخفق بعنف.

كان القط يجلس بهدوء، يراقبني بعينين ذكيتين، كأنه يقيّمني.
الكلب اقترب مني، مدّ أنفه نحوي، ثم جلس، وكأنّه حارس شخصي.
أما الببغاء فظل يطير فوقنا، يلفّ في دوائر، ثم يهبط قليلاً دون أن يلمس الأرض.

— "أين أنا؟" سألت أخيرًا، رغم أنني كنت أعرف أن السؤال غير كافٍ.

قال القط بصوت ناعم:

— "لسنا في عالمك... لكننا أيضًا لسنا غرباء عنك."

لم أفهم ما يعنيه، لكن لم أجرؤ على التعمق أكثر.
كل شيء كان غريبًا، وكل ثانية تمرّ، كانت تقرّبني من المجهول.

— "من أنتم؟" سألت ثانية.

قال الكلب هذه المرة، بنبرة هادئة:

— "رفاق الدرب. لا أكثر، ولا أقل."

ردّ الببغاء ساخرًا:

— "ولا أقلّ؟! كأنك شاعر!"

ابتسمت رغم خوفي.

— "ولماذا أنا هنا؟"

لم يجيبوا.

بدلاً من ذلك، مشى القط بخطى بطيئة نحو أحد الممرات، وقال دون أن ينظر إليّ:

ـــ "الأسئلة كثيرة. لكن الوقت قصير. إن كنتِ تريدي الحقيقة... اتبعينا."

تردّدت لحظة، نظرت حولي... الأشجار كانت تلمع، الأرض تُصدر أصواتًا خافتة كأنها تتنفس، والسماء البنفسجية تتحرّك ببطء فوق رأسي، كأنها بحر هادئ.

ثم تبعتهم.

سرنا في طريق ضيق تحفّه الأشجار من الجانبين.
كل شجرة كانت تحمل أوراقًا تتوهّج بلون يختلف عن الأخرى: الأزرق، البنفسجي، الذهبي، وحتى الأسود.

كنت أسمع أصواتًا غريبة: موسيقى بعيدة، همسات، خرير مياه لا أراها.

ـــ "هل هذه غابة؟" سألت.

أجاب الببغاء:

ـــ "هي أكثر من غابة... وأقل من عالم."

قال الكلب:

ـــ "لا تسألي كثيرًا الآن. ستفهمين في الوقت المناسب."

كنت أشعر أنني لا أتحكم بشيء، لا بمكاني، ولا بزماني، ولا حتى بقراراتي.
لكن الغريب أنني لم أكن خائفة كما ظننت.

كان فيّ شعور عميق بأنني على طريق صحيح، حتى وإن لم أفهم وجهته.

بعد مسافة طويلة، وصلنا إلى منطقة مفتوحة، أشبه بساحة تحيط بها تماثيل حجرية ضخمة.
كل تمثال يمثّل مخلوقًا غريبًا: نمر بجناحين، امرأة بعين واحدة، طائر من نار...

تقدمت بخطى بطيئة، ووقفت في منتصف الساحة.

فجأة... بدأت القلادة التي أرتديها تتوهج.

أضواء خرجت من كل تمثال، تلاقت عند قدمي، ثم صعدت لتلفّ جسدي بدائرة ضوء.

شعرت أنني أخفّ، كأن الأرض لم تعد تحملني.

ثم سمعت صوتًا... ليس من الخارج، بل من داخلي:

"بدأتِ.
لكن البداية هي اختبار.
هل ترين الحقيقة أم تبحثين عنها؟
وهل القوة في اليد... أم في القلب؟"

ثم اختفى الصوت.
واختفت الأضواء.

كان الكلب ينظر إليّ.

ـــ "القلادة استجابت لك. هذا يعني أن شيئًا فيكِ... صحيح."

سألته بخوف:

ـــ "صحيح؟ ماذا تعني؟"

أجاب القط وهو يتقدّم:

ـــ "أنكِ لستِ مجرد فتاة تبحث عن أمّها."

نظرت إليهم في صمت.
شعرت أنني لا أفهم شيئًا.
لكنني كنت أعلم شيئًا واحدًا: أن هذه ليست مجرّد مغامرة.

هناك شيء أعمق، أكبر... شيء ينتظرني.

سرنا مجددًا، وهذه المرة، دخلنا عبر ممر من الأشجار العالية.
فجأة، الجو تغيّر، أصبح أكثر دفئًا، والهواء فيه رائحة لا أعرفها... ليست زهورًا، ولا نارًا، بل شيء جديد.

سألت:

ـــ "أين سنذهب؟"

قال الببغاء بصوت خافت، كأنه يخشى أن يُسمع:

ـــ "نحو البداية الحقيقية."

وعند آخر شجرة... توقفت.

فقد كنت أسمع شيئًا.

كان الصوت خافتًا... لكنه مألوف.
كأنّه... صوت أمي.

نظرت حولي، أردت أن أركض، أن أصرخ، لكن القط أوقفني بنظرته:

— "ليس الآن."

كان في صوته حزن... لكنه لم يشرح.
ولم أصرّ.

لأول مرة... قررت أن أتابع الطريق، دون سؤال.

لأني شعرت، دون أن أُقال لي، أن الأجوبة... ليست جاهزة.
وأن بعض الأسرار لا تُقال... بل تُكتشف.

الفصل الخامس

المغامرة

بدأنا الرحلة، وأنا وسط الحيوانات الثلاثة، كأني في حلم لا أملك فيه السيطرة على شيء.

القط كان يمشي بثقة، خطواته صامتة كأنه لا يلمس الأرض. الكلب كان دائم الانتباه، يدور حولي كحارس شخصي لا ينام.
أما الببغاء، فكان يطير فوق رؤوسنا، يُغني أحيانًا ويُعلّق أحيانًا بسخرية، لكنه لم يبتعد عنّا لحظة.

كنا في غابة، لكن ليست كأي غابة عرفتها. الأشجار تتنفس، تُغيّر ألوانها كلما مررنا. مرة خضراء كزمرد، ومرة فضية كأنها من ضوء القمر، وأحيانًا سوداء تمامًا كأنها ظلال متجسدة.

قال الببغاء مرة:
— "لا تثقي كثيرًا بما ترينه هنا، كل شيء يتبدل."

سألته:
— "وما الذي لا يتبدل؟"

ردّ القط دون أن يلتفت:
— "القلب. إن كان صادقًا، لن يضلّ الطريق."

في لحظة، تلاشى الطريق تحت أقدامنا، وتحولت الغابة إلى كثبان رملية فضية، تمتد بلا نهاية. لكن السماء بقيت بنفسجية، تراقبنا بعينها الساكنة.

في منتصف هذه الصحراء، واجهنا عاصفة صامتة. رمالها لا تُصدر صوتًا، لكنها تمنع الرؤية. تمسكت بالكلب، شعرت أنني أفقد نفسي.

سمعت صوتًا في العاصفة... صوت أبي.

التفتّ، ركضت نحوه، لكن القط أوقفني في اللحظة الأخيرة.
— "ليس حقيقيًا، لا تصدقي."

بكيت. قلت:
— "لكنني سمعته... كان يناديني باسمي!"

أجاب الببغاء:
ـــ "الصحراء تقرأ قلبك، وتمنحك ما تريدين... أو تخدعك بما تتمنين."

حين انتهت العاصفة، عدنا إلى الغابة. لكنها لم تكن كما كانت.
الأشجار الآن من بلور، كل واحدة تعكس صورة مختلفة: أنا صغيرة، أنا خائفة، أنا تائهة... ثم صورة لأمي، تنظر خلفها، كأنها تعرف أنني أراها.

قال الكلب:
ـــ "الغابة تُريك حقيقتك، كي تعرفي ما تبحثين عنه فعلاً."

دخلنا مغارة من الكريستال، جدرانها تعكس ضوء القلادة، فتتشكل خريطة في الهواء. كانت الخريطة تُظهر طرقًا كثيرة، لكن خطًا واحدًا كان يتوهّج باللون الأزرق.

قال القط:
ـــ "هذا هو الطريق. يقود إلى مكان الأسرى."

سألت:
ـــ "هل أمي هناك؟ "

نظروا إلى بعضهم، ولم يجب أحد. لكن عيونهم كانت تقول كل شيء.

في الليل، وبينما كنّا نرتاح قرب نهر غريب يتدفق إلى الأعلى بدلاً من الأسفل، هجمت علينا مخلوقات من ضوء وظلام. كانت تلمع مثل نجوم غاضبة، وأصواتها كأنها تصرخ داخل رأسي.

حميت نفسي خلف الكلب، ورأيت القط ينقضّ على أحدهم، يخدشه بشراسة. الببغاء أطلق صرخة عالية كأنها موجة صوتية، فتراجعت الكائنات، ثم اختفت.

جلست أرتجف، ودموعي تنزل دون إرادتي. شعرت أنني لا أستطيع الاستمرار.

اقترب الكلب، ووضع رأسه على ركبتي.

قال الببغاء بهدوء:
ـــ "أنتِ أقوى مما تعتقدين."

الفصل السادس

الغرفة الخفية

واصلنا الطريق على تلال مرتفعة، الصمت يملأ الأفق، لا طيور، لا ريح، لا حتى صوت خطواتنا. كأنّ العالم كله حبس أنفاسه.

القط قال فجأة:
— "نحن نقترب."

نظرتُ أمامي، فرأيت قلعة قديمة، كأنها منحوتة من صخرة عظيمة، أطرافها مهترئة، وأبراجها مشققة، لكنها ما زالت واقفة، متحدّيةً الزمن.

كان هناك شيء مخيف في الجو، طاقة خفية تضغط على الصدر.

قال الكلب:
— "إذا خفتِ، قولي الآن. الدخول إلى هذا المكان... لا رجعة بعده."

همست:
— "أنا خائفة... لكنني سأدخل."

اقتربنا من الجدار الغربي، حيث شقّ في الحجارة سمح لنا بالدخول. مررنا عبر دهاليز ضيقة، باردة كأنها لم تعرف دفئًا منذ قرون. كلما تقدمنا، خفت الضوء، وزادت الرطوبة، حتى بدت الأرض نفسها تنزف من الجدران.

وصلنا إلى قاعة فسيحة، تتوسطها دائرة متوهجة، لونها بنفسجي داكن. في وسطها... كانت أمي.

مقيدة داخل خطوط سحرية تلمع كالبرق. شعرها متناثر، ووجهها شاحب، لكن عيناها لا تزالان تحويان الحياة.

صرخت:
— "أمي!!"

ركضت نحوها، لكن الكلب أوقفني بذيله.

قال القط:
— "الدائرة لن تسمح لك بالدخول... إلا إذا أرادت."

اقتربتُ ببطء، رفعت القلادة، فبدأت تتوهج. الضوء تسرب منها كخيوط ماء، وبدأ يذيب حواف الدائرة شيئًا فشيئًا.

وضعت يدي على الخط البنفسجي، شعرت بحرارة تحرق جلدي... لكنني لم أتراجع.

ثم... انكسر الحاجز.

ركضت نحو أمي، احتضنتها، وبدأت أبكي في صمت.

فتحت عينيها، همست بصوت مرتجف:
— "لم أكن أصدق أنكِ ستصلين... يا صغيرتي."

ثم نظرت خلفي، عيناها تتسعان فجأة.

همست:
— "لكنك... لستِ وحدك."

التفتُّ.

ومن بين الجدران التي لم ألاحظها من قبل... خرج رجل.

شعرت أن الهواء اختفى من المكان.

كان طويلاً، وجهه شاحب، وعيناه تحملان غموضًا مرعبًا... لكنه كان مألوفًا.

قلبي خفق بقوة.

قال الرجل بصوت خافت، لكنه حمل كل الذكريات:
— "أخيرًا... عدتِ."

عرفتُه قبل أن يتكلم.

أبي.

لم أستطع الحركة. لا الدموع خرجت، ولا الكلمات.

اقترب، عانقني، وكنت كأنني أحلم. حرارة جسده، ملمس يده... كان حقيقيًا.

أمي همست:
— "لقد كان محاصرًا... طوال هذا الوقت. لم أستطع أن أخبركِ، خفتُ أن تفقدي الأمل."

نظرت إليها، ثم إليه، ثم إلى القط، الذي أدار وجهه جانبًا.

قال الببغاء:
— "بعض الحقائق... تُخفي لحمايتنا، لا خوفًا منّا."

سمعنا صوت هدير بعيد.

قال الكلب:
ـــ "القلعة تنهار... علينا الخروج الآن!

الفصل السابع

الوداع

ركضنا بين الجدران المتشققة، الأرض ترتجف تحت أقدامنا كأن شيئًا قد استيقظ بعد سبات طويل.

كل لحظة كانت كافية ليسقط السقف، لتبتلعنا الحجارة، لكننا ركضنا.

كنت أمسك بيد أمي، وأبي يمسك باليد الأخرى. أما الحيوانات الثلاثة، فكانوا أمامنا، يشقون الطريق وسط الظلام، يصرخ الببغاء ليحذرنا، يزمجر الكلب ليردع أصواتًا قادمة من بعيد، والقط يقفز فوق الحواجز بخفة، كأنه يعرف الطريق مسبقًا.

خرجنا من القلعة، ووراءنا انبعث ضوء بنفسجي غريب، كأن الطاقة التي حبست والديّ لسنين طويلة كانت تتحرر أخيرًا.

وصلنا إلى تلة صغيرة، فوقها ظهرت البوابة.

كانت تشع بضوء أقوى من أي مرة سابقة. لم تكن مجرّد دائرة من النور... كانت نابضة، متغيرة، كأنها قلب حيّ.

توقفتُ للحظة، نظرت إليها، ثم إلى الحيوانات الثلاثة.

هم أيضًا توقفوا.

قلت:
— "هيّا! تعالوا معنا!"

لكنهم لم يتحركوا.

تقدم القط خطوتين، نظر في عيني، وقال بصوته الهادئ:
— "مكاننا هنا... كما قلت من قبل."

قلت بقلق:
— "لكن أنتم... أنتم ساعدتموني! أنقذتم عائلتي!"

قال الكلب، وهو ينظر بعيدًا:
— "هذه مهمتنا، لا أكثر. نحن لا نعبر الأبواب، نحن فقط نرشد إليها."

طار الببغاء قليلاً، ثم استقر على صخرة، وقال بصوته العميق هذه المرة:

ـــ "كل بوابة تُغلق خلفك، تفتح أمام آخر. ونحن... بانتظار من سيأتي بعدك."

لم أعرف كيف أردّ.

أردت أن أصرخ، أن أطلب منهم أن يأتوا، لكنني شعرت بشيء في داخلي يمنعني. كان وداعًا حقيقيًا، وليس لدي الحق في تغييره.

اقتربت من القط، جلست أمامه، وضعت يدي على رأسه.

قلت:
ـــ "لن أنسى."

ردّ ببساطة:
ـــ "ولا نحن."

أمي وضعت يدها على كتفي، وأبي ضغط على يدي.

مشينا نحو البوابة، وخلفنا، وقفت الأرواح الثلاثة تراقبنا بصمت.

فجأة... سمعنا صوت الببغاء، آخر مرة، يصرخ ضاحكًا:
ـــ "اركضوا! قبل أن تغيّر البوابة رأيها!"

ضحكت رغم دموعي... وركضنا.

دخلنا في النور.

لحظة واحدة... ثم سكون.

استيقظنا في البيت الحجري القديم، في قريتنا.

كانت الشمس مشرقة، والحقول ساكنة، كأن شيئًا لم يحدث.

نظرت إلى أمي، كانت نائمة بهدوء.

أبي كان هناك... لكنه اختفى قبل أن يفتح أحد عينيه. كأنه لم يعد معنا، كأن البوابة لم تُعِده بالكامل.

لكنني كنت أعلم.

علمتُ أنني عدت مختلفة.

أصبحت أرى أشياء لا يراها غيري. أحسّ بوجودات لا تُرى. وكنت أحمل قلادة... تنام الآن، لكنها لم تنطفئ.

في الأيام التالية، عادت الحياة كما كانت.

الناس لم يلاحظوا شيئًا، لم يعرفوا أننا رحلنا... وعُدنا.

لكنني، كلما نظرت إلى السماء، شعرت أن هناك من يراقبني... من بعيد.

وكلما نظرت إلى القمر، شعرت أن الثلاثة... ما زالوا هناك.

قط، وكلب، وببغاء.

لم يعودوا فقط ذكريات.

صاروا جزءًا مني، من روحي.

ولأنني عرفتهم... لم أعد أحتاج لأن أكون الطفلة الخائفة.

صرت شيئًا آخر.

شخصًا يعرف أن العالم لا ينتهي عند حدود البيت أو المدرسة أو القرية.

بل هناك أبواب... تنتظر من يملك الشجاعة ليعبرها.

وأنا... كنت من أولئك الذين عبروا.

كلمة ختام

لكل من قرأ هذه الرواية، شكرًا من القلب.

حين بدأت كتابة هذه الحكاية، لم أكن أعرف إلى أين ستأخذني. كنت أبحث عن معنى، عن صوت، وربما عن نفسي بين الكلمات. لم أكتب لأخبر العالم بحقيقة، بل لأصنع عالمًا أستطيع أن أتنفس فيه بحرّية، أن أهرب إليه، أو أجد فيه ما يعجز الواقع عن منحه.

ربما لم تكن القصة عن فتاة فقط، بل عن كل من يشعر أحيانًا بأنه تائه، يبحث عن شيء لا يعرف اسمه، أو ينتظر شيئًا لا يدري إن كان سيأتي.

كتبت لأنني أؤمن أن داخل كل واحد منا، باب غير مرئي، لا يُفتح إلا بشجاعة الحلم.

وإذا وصلتَ إلى هنا، فاعلم أنني ممتنة جدًا... لأنك عبرت معي.

إلى اللقاء في قصة أخرى... أو في حلم جديد.

بمحبة،

الكاتبة: ايناس عثمان